

ثقافة عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا نقول إنه كان رجلاً وافر الحظ من ثقافة زمانه، إنه كان أديباً مؤرخاً فقيهاً، مشاركاً في سائر الفنون، ومدرباً على الرياضة البدنية، خطيباً على الكلام، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب.

ظل في إسلامه كما كان في جاهليته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلالاتها ودقائقها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها، فكان يروى الشعر ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عد الرحمن "يا بني انسب نفسك تصل رحمك، وأحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه. ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يود حقاً ولم يقترف أدباً". . . وقال للمسلمين عامة: "ارووا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق".

ونظر إلى فائدته العملية كما نظر إلى متعته الأدبية، فقال فيه أنه جذل^(١) من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة^(٢) ويبلغ به القوم في ناديم، ويعطى به السائل.

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حرم نصيبه منها، فكان يقول: لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقواماً ينتقمون أطايب الحديث كما ينتقمون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قدمت.

وإذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ.

(١) الجذل: الأصلي. (٢) النائرة: الهياج.

وقد كان إعظام الرجل في عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الإبانة والنطق الحصيف، فنظر يوماً إلى هرم بن قطبة ملتفاً في بت^(١) يناجيه المسجد وقد عرف تقديم العرب له في الحكم والعلم وهو ما هو من دماته وضآلة زرى، فأحب أن يكشفه ويسير حكمته، فسأله في علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل: أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تنفر^(٢)؟ فأجابه الرجل: يا أكبر المؤمنين! لو قلت فيهما لأعدتها جذعة، أى لأعاد الحرب فتية كما كانت، فأثنى عليه وقال: لهذا العقل تحاكت العرب.!

وجاءه وقد فيه الأحنف فتركهم جميعاً وأستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات.

وسره أن عاد العرب إلى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد في سبيل الدين: فكان يقول إن الشعر "كان علم وقوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد غزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يثلموا^(٣) إلى ديان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره.

ومن ناحية الأدب فيه وناحية الدين معاً حثه على تعلم العربية "لأنها تثبت العقل وتزيد في المروءة"، وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية.

ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طووال حياته، ولم ينكر من الشعر

(١) البيت: الطيلسان من خرونحوه.

(٢) نفر فلانا ينفره: غلبه في المنافرة، ونفر فلانا "بتشديد ألفا" وأنقره: أعانه وغلبه وحكم

له وهو المقصود هنا. (٣) لم يثلموا: لم يرجعوا.

إلا ما ينكره المسؤول عن دين، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية إلا حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضي المتحرز الأمين.

فنهى عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء وجيء له بالخطيئة منهما بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(١)

فنسى أنه الأديب الراوية ولم يذكر إلا أنه القاضي الذي يدرأ الحدود بالشبهات ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمه أهل الصناعة، وقال للبرقان: ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة. ثم سأل حسان بن ثابت فقضى بأنه هجاء وأفحش في هجائه، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود إلى مثلها، فانتهى طوال حياة عمر، ثم عاد إلى الهجاء بعد وفاته.

واستعداده تميم بن مقبل على النجاشي لأنه قال في قومه بنى العجلان:

إذا الله عادى أهل لؤم وذلة فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر، وقال على ستة القضاء يدفع الحدود بالشبهات: إنه دعاء والله لا يعادى مسلما.

قال تميم: فإنه يقول عنا:

قبيلته لا يدرون بدمه ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر: ليتنى من هؤلاء. قال تميم، وإنه يقول:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل

فقال عمر: كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه.

قال تميم: وأنه يقول:

(١) الطاعم الكاسي: أى المطعم المكسور.

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل
فقال عمر: ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أى الزحام).
قال تميم، وإنه يقول:

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب^(١) واحلب أيهما العبد وأعجل
فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم أنفعهم لأهله.
قال تميم، فسله عن قوله:

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللثيم ورهط العاجز المتذلل

فقال عمر: أما هذا فلا أعذرك عليه، وحبس الشاعر ليذكر إبراء الذمة
فى القضاء. وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب فى نسيان أدبه.
ولكنه مطلب ما أستطيع قط ولن يستطيع، فكان عمر فى تخرجه للكلام
وعلمه بما تنصرف إليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر
لفظه ومعناه.

ومن المشهور عن عمر أنه كان عليماً بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر
أنسابها كعلمه بالمتخير من شعرها والسائر من أمثالها.

جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه، وكثيراً ما كان يقول كما جاء فى
البيان والتبيين: سمعت ذلك عن الخطاب، ولم أسمع ذلك عن الخطاب.

ومن وصاياه: "تعلموا النسب ولا تكونوا كتبظ السود"^(٢) إذا سئل
أحدهم عن أهله قال من قرية كذا". ومنها "عليكم بطرائف الأخبار، فإنها
من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم".

(١) القعب: قدح ضخيم غليظ، جمعه قعاب وأقعب.

(٢) التبظ: جيل من العجم يتزلون بالبضائع بين العراقيين.

وفقه عمر بالشرية التي كان مسئولاً عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه . فكان عبد الله بن مسعود يقول :
" كان عمر أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله " ، وكان إذا اختلف أحد في قراءة الآيات قال له : اقرأها كما قرأها عمر ، وأطب فقَالَ : " لو أن علم بن الخطاب في كفة ميزان ذهب بتسعة أعشار العلم . . وقال ابن سيرين : " إذا رأيت الرجل يزعم أنه علم من عمر فشك في دينه " ، وكل ما فسره به آي القرآن في معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح في وزن العقل والدين ، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحاكم الواضح الصحيح .

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يحمل بالعلماء في طلبه ، فكان يقول : " تعلموا العلم وتعلموا للعمل السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمون ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم " . وكان يوصي طلابه " أن يكونوا أوعية للكتاب وينابيع العلم ، ويسألوا الله رزق يوم بيوم ، ولا يضرهم إلا يكسر لهم " ، ولا يزال يذكرهم أن التفقه مقدم على السيادة " فتفقهوا قبل أن تسودوا " .

ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحده ، ولا علم الأدب واللغة وحده ، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال : " تعلموا من النجوم ما يدلکم على سبيلکم في البر والبحر ولا تزيدوا عليه " . ولا شك أن نصائحه العملية في طلب العلم كانت أغلب في نصائحه النظرية فيه ، شأنه في ذلك شأن رجل الدولة الذي يعلم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم . : ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذي روينا في علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن في أيامنا ، فإنما الزيادة التي كرهها هي تلك الزيادة التي كانت على عهده تخوض في التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب وتجعل منها أرباباً تعب وأرصاداً تؤتمن على

أسرار الغيب . وذلك ما انتهى عنه الآن ونعد النهى عنه من تحقيق العلم الصحيح .

ولم يفته الحرص على المعرفة التي تخترع منها منافع في أمر المعاش ، فطلب إلى أبي لؤلؤة غلام المغيرة أن ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء ، وهو علم الصناعات كما انتهى إليه في عصره ، لا يضيره أنه قسط ضئيل ، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار .

على أن زبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال إنما تتلخص في شيء واحد هو الدراية بالناس ، ونفاذ البصر في شئون الدنيا ، وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية ، أو هو ما نسميه في أيامنا هذه بالرأى السليم والحكمة العملية ، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قلل النظراء فيه ، وحفظت له كلمات في معانيه ينذر مثلها بين كلمات الحكام ، ولا يكثر مثلها بين كلمات الحكماء .

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله : " ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذي يعرف خير الشرين " .

وأى نفاذ في تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول : " ما وجد أحد في نفسه كبرا إلا من مهابة يجدها في نفسه " ، أليس هذا بعينه هو موكب النقص الذي يله جبه علم النفس الحديث ؟

وأى رأى في تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول :

" لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب " ، أو حين أتى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصبحت في السفر؟ أعاملته؟ فلما أجابه نفياً قال : " فأنت القائل بما لم تعلم؟ " .

وأى فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين :
" إذا توجد أحدكم في الوجه ثلاث مرات فلم ير خيراً فليدعه ؟ "

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهى المعصية ولا يفارقها، وفيمن ينتهى عنها وهو لا يشهيهما، أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند الله؟ فكتب فى هذا فصل الخطاب إذ قال: "إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم". وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقاده حين قال "من كتم سره كان الخيار بيده".

وكذلك وصيته فى الحب والبغض حين قال "لا يكن حبك كلفاً. ولا بغضك تلفاً".

وكذلك مخافته محنة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال: "أحذركم عاقبة الفراغ فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر". وكذلك وصاياه التى كانت تحفل بها كتبه إلى الولاة وخطبه فى الصلوات والأعياء كلها آيات من هذه الحكمة العملية التى هى خلاصة الثقافة المحمودة فى أقطاب الحكم خاصة، وفى كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم.

أما مشاركته فى سائر الفنون والمعارف التى كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره، ولا ينقصى فيها إلى التفصيل.

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعف "جغرافية" الشرق كأحسن ما يعرفها رجل فى وطنه، ولكنه كان يعرفها حقاً عن سماع وعن رؤية وعن زكاة تعين السماع والرؤية. بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيراً عن ذلك. فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه إليه وقالوا فى شكواهم إياه "إنه لا يدري علام استعمل" وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره.

ومن الواجب أن نشك في كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التي يحتاج إليها في تدبير الدولة، فلا يعقل مثلاً أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجراً منذ نشأته في الجاهلية، وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هي الألوف وما هي عشرات الألوف، فإذا استفسر عن رقم فلن يكون إلا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة كما جاء في أخبار الخراج من هجر والبحرين.

قالوا أبو هريرة ما فحواه: قدمت من هجر والبحرين بخمسمائة ألف درهم: فأتيت عمر بن الخطاب مسياً أسلمه إياه فسأل كم هو؟ قلت خمسمائة ألف درهم! قال: وتدرى كم خمسمائة ألف درهم؟! قلت نعم: مائة ألف ومائة ألف خمس مرات.. قال: أنت ناعس، اذهب فبت الليلة التي تصبح! فكل شيء يجوز أن يفهم من هذه القصة إلا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك، وهو الذي شهد الدولة وحاسبها من عهد أبي بكر وأحصى الجند والمال في عهد.. إنما هي غبطة واستعظام وليس هو جهلاً بدلالة هذا الرقم في جملة الحساب.

وإذا قل من يخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظاً من السماع والغناء، ولكنه كان يسمع وبغنى في بعض الأحيان، ولا ينهر عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات. جرى له برجل يغنى في الحج وقيل له إن هذا يغنى وهو محرم، فقال: دعوه فإن الغناء زاد الراكب.

وروى نائل مولى عثمان بن عفان أنه خرج في ركب مع عمر وعثمان وابن عباس، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح ابن المعترف الفهري الذي كان يجلدو ويجيد الحداء والغناء. فسألوه ذات ليلة أن يجدوا لهم فأبى وقال مستكراً: مع عمر! قالوا: أحد فإن نهاك فانت. فحدوا^(١)، حتى إذا كان

(١) الحداء: الغناء للإبل كي تجرد في السير، والنصب: غناء أرق من الحداء وهو غناء الركبان.

السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر، ثم كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم العرب. فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلاً: مع عمر؟.. قالوا له كما قالوا بالأمس: انصب فإن نهاك فاتته. فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. ثم كانت الليلة والثانية فسألوه أن يغنيهم غناء القيان^(١). فما هو إلا أن رفع عقيرته^(٢) بعنائهن حتى نهاه وقال له: كف فإن هذا ينفر القلوب.

وكان يخرج للحد ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنى شعراً ويؤثر أن يكون ذلك من شعره.

خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن ابن عوف، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار، وقال عمر: بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر، فهتف به عمر: ارفع لسنك يا خوات فقد أسحرنا.

وجاءه قوم فذكروا أن إمامهم يصلى بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر، فقام معهم إلى واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه، واستنشه الأبيات التي بغنيها، فأنشده:

وفؤادى كلما نبهته	عاد في اللذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر إلا لا هيئاً	في تماديه فقد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا	فمنى العمر كذا باللعب ^(٣)
وشباب بان ^(٤) منى فمضى	قبل أن أقضى منه وأبى
نفس لا كنت ولا كان الهوى	اتقى المولى وخافى وأرهبى

(١) القيان: جمع فتية وهى الجارية البيضاء، وقيل: تختص بالمغنية. (٢) عقيرته: صوته.

(٣) الصبا: من الشوق، يقال منه (تصابى)، والصبا اللعب مع الصبيان.

(٤) بان: ذهب وودع.

فأعاد البيت الأخير، وقال لمن شكوا إليه: من كان مغنياً فليغن هكذا.
وكان مرة في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أير وأوفى ذمة من محمد

فاجتمع الركب إليه، فقرأ فتمرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات، فصاح بهم: "يا بني المتكاء^(١)! إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم؟..". لا يلومهم على الغناء وسماعه، وإنما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات.

ولا شك أن الشغف بالشعر الجزل والحديث الرائق والصوت الحسن لا يجتمع في نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل. ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر بأسه وشدته حجره على زينة الحسان؟ فقد دخل في روع أناس أنها جميعاً من نفاض حب الجمال، وقد سمعنا هذا فعلا من أدباء يجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مآثور حسناته، لأنه كان شديداً في الحجاب وكان ينفي الفتيان الحسان كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل بن سنان، وكان يقول: "استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر".

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينم على الإحساس بخطر الجمال وطغيان فينته، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بآثره. وما نخال أحداً من المترخصين في الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من إيمان عمر بسلطانه، أو كان يعرف حق المرأة في الشوق إليه كما عرفه وأمر برعايته، فإنه كان ينكر على الآباء أن يكرهوا فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم: "ألا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهن يجبن ما تحبون". وجاءت له امرأة بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه، فأمر به أن يحم وأن تقلم أظفاره

(١) المتكاء: المرأة لم تختن.

ويؤخذ من شعره، ثم قال له ولمن فى مجلسه: "هكذا فاصنعوا لهن فو الله
أنهن ليحبين أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم".

فكل ما روى عن عمر من الشدة والرفق فى معرض الجمال فهو دليل
على الإحساس به وإكبار خطره، وليس بدليل على الغفلة عنه استصغار أثره،
وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة.

ومن الآداب العامة التى لها حظ من ذوق الجمال فى معارض السياسة
أدب الذكريات الذى لا يستغنى عنه ولاة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول
والاحتفال بمراسمها وأعيادها.

ففى هذا الأدب كان لعمر النصيب الذى يغنيه، فهو الذى اختار أو
وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الإسلامى. وأنه لأصلح يوم يؤرخ
به الإسلام لأن العقائد كما قلنا فى "عبقريه محمد": تقاس بالشدائد ولا
نقاس بالفوز والغلب، وكل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز فى
الدعوة. أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى
النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء".

وكلما اقترح على عمر اقتراح فيه نفحة من ذوق الذكرى كان مجيباً له
سريع الإصغاء إليه. فكان يحترم وفاة بلال وإقلاعه عن الأذان بعد وفاة النبى
عليه السلام ولكنه دعاه إلى الأذان تلييه الحلة من الصحابة فى يوم وداع دمشق
بعد الفتح المبين. فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة إذا بالصوت الذى
انقطع بعد النبى يرتفع رويدا رويدا فى الفضاء ويسرى رويدا رويدا من
الأسماع إلى الصدور، والتفتوا وكأنهم يسألون: ماذا؟ هل عاد محمد إلى
الأرض؟ إن لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين إليه أقوى ما ينبعث من صوت
إنسان إلى صدر إنسان. . . فذابت قلوب لا يذيبها الهول، وبكى أشيب
أولئك الأبطال وأصبرهم على حر القتال.

وإذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يحوجنا إلى النظر من ورائه فعمر الرياضي المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله، وسيرته فى الجاهلية وسيرته بعد الإسلام، وسيرته بعد الخلافة إلى أن فارق الحياة.

فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب إلى الأمصار أن "علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر"، ولا يفتأ يذكرهم أنه: "لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو" أى يرمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب.

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية ولم تكن من صفات الذهن وكفى، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول، ولوحظ عليه أنه كان ينطق ببعض الحروف - كالصاد - من كلا شذقيه وهى تنطق فى الأغلب من شذق واحد.

وكان جهورى الصوت واضح النطق سليم الشقين فى إخراج الحروف، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرؤها فكأنك تصغى إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع.

ولا نطباعه على الكلام الذى لا تصنع فيه كان سهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب إلا الذى يغير من نظرته إلى الناس ويلجئه إلى المدارة والباطل فكان يقول: "ما يتصدنى^(١) كلام كما تصعدنى خطب النكاح"، والتمس ابن المقفع عنه ذلك فقال: ما عرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه، ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق^(٢)، ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء، وإذا علا المنبر صاروا سوقة

(١) ما يتصدنى كلام: ما يشق على.

(٢) الحداق: جمع حدقة وهى سواد العين.

ورعية، والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب
عمر لخطب النكاح إلى " أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب، فلعله
كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وعر القوم من صاحبه ". وكلا
القولين جائز في بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم في محافل النكاح.
فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال، ومطبوع على
الصدق تشغل على صاحبه المداهنة، وهى بما لا غنى عنه فى هذا المقام، ولو
كان الخاطب من الأكفاء.

وقد اختلفوا فى نظمه الشعر فزعم الشعبى أنه كان شاعراً ورويت أشعار
لا تشبهه ولا ترضيه، ونفى هو نظمه للشعر حين قل: " لو كنت أقول الشعر
لرئيت أخى زيدا".

ولا طائل فى هذا الخلاف لأنه لن ينتهى إلى رأى قاطع يسكت عليه،
ولكنما الهم فى هذا الصدد أنه كان مطبوعاً على التعبير وله عبقرية فيه، أو
أن تعبيره كان خاصا به لا يشبهه تعبير سواه، فهو تعبير عمرى بمفرداته
وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل
كلام، ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة.

فمن خصوصياته فى التعبير أنه كان يقول: " لولا الخليفة لأذنت"،
وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الأعراب.

ومنها وهو ينقل خير إسلامه إلى خاله: " وجئت إلى خالى فأعلمته
فدخل إلى البيت وأجاف الباب " أى أوصده.

ومنها وهو يصف ما وقع من الآية التى تلاها أبو بكر رضى الله عنه
حين أنكر موت النبى فقال: " والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها
فعمرت حتى ما تلقى رجلاى"، يعنى أنه عجز عن القيام.

ومنها فى الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها: " شر الكتابة المنشق
وشر القراءة الهذومة، وأجود الخط أبينه(١) .

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقى الناس يوم أحد: أنها " كانت تزفر
للناس تمر به " أى تحملها .

ومنها فى المشورة: " رأى الفرد كاخيط السحيل، والريان كاخيطين
المتزمين، والثلاثة مرارا لا يكاد يتنقض " (٢) .

ومنها حين كتب إلى أبى عبيدة بعد ولايته الخلافة: " .. ولا تبعث
سرية إلا فى كثف من الناس " (٣) .

ومنها حين شكأ إليه الشاكى هجاء الشاعر الذى قال فيه:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل مورد

فقال: ذلك أنفى " للسكاك " أى الزحام .

ومنها فى سماحة بالبكاء " ما لم يكن تقع أو لقلقه " أى ما لم يشر
التراب ويفرط فى العويل . .

ومنها وقد حار بأهل الكوفة: " أعضل(٤) بى أهل الكوفة ما يرضون
بأمر ولا يرضاهم أمير " .

ومنها: " إن قریش تريد أن تكون مغويات لمال الله " أى مصائد تحتجته
لها دون عباد الله .

ومنها: " تعدوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوا " أى
تزيوا بزى العرب من معد بن عدنان .

(١) مشق فى الكتابة: مد حروفها وأسرع فيها، هذرم القرآن: أسرع فى قراءته لا يتدبر
معانيه .

(٢) السحيل: الثوب السحيل الذى لا يبرم غزله، مرار: قوية محكمة .

(٣) الكثف: الجماعة . (٤) أعضل بى: أعيانى أمرهم .

ومنها: "فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين، ولا تلتسوا^(١) بدار معجزة" أى تقيموا.

ومنها: "فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه أن يقتلا" أى أن يتعرضا للقتل.

ومنها: ". . إن الاقتصاد فى السنة خير" من الاجتهاد فى الضلالة، فافهموا ما توعظون به. فإن الحريب من حرب دينه" يريد المسلوب.

ومنها وقد سمع بامرأة سافرة يبرزها زوجها فقال: "هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشرت بهما" أى لأغلظت القول لهما.

ومنها لما سأله: لم حصبت المسجد فقال: "هو أغفر للنخامة وألين فى الموطن" أى أستر للبصاق.

ومنها: "ثلاث من الفواق^(٢): جار مقامة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لستك وإن غبت عنها لم تأمنها. وسلطان إن احسنت لم يحمدك، وإن سألت قتلك"، ولستك: أى تناولتك بلسانها.

ومنها: وهو يخاطب سعد بن عبادة يوم القيفة: "لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك" أى تسقط.

ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس: "خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر"، أى استنبط عين الشعر وشتق طريق المعانى وأتى بالشوازد الحسان.

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين فى الغنائم وبيت المال: "والله

(١) فى المختار: ولا تقيموا ببلدة فيها عن الاكتساب والتعيش.

(٢) الفواق: جمع فاقرة وهى الداھية.

لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانة قبل أن يحمر وجهه" ، أى قبل أن يخجل ويحمر وجهه فى طلبه .

ومنها قوله الأعرابى استفتاء فى صيد ظبى وهو محرم : " أتقتل فى الحرم وتغمص الفتيا! " أى تعيها ولا ترضاه .

وأشبهه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب ، تعمدنا أن نكثر شواهد لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات .

ويلحق بهذا تسمية موالية بين أسبق وأسلم ويرفاً وفرقد وذكوان وفروخ وما شابه هذه الأسماء ، وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه ، وإنما هى الطبيعة العمرية تمثلت فى صيغة الكلام وفى اختيار الأعلام ، فلا تستطيع أن تسميها اغراباً أو عسطة أو عملاً^(١) بنحو من أنحائه ، إذا ليس وراءها قصد متفق فى جميع هذه الصيغ ، وأبين ما بين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك ، وأنها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها ، فهى قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف . وهكذا كان المتكلم عمر ، وهكذا كان كلامه الذى ينطبع عليه حين يكون منطبعاً على التعبير ، فلو أن كلمات تمثل رجلاً لتراعى لنا من مثال هذه الكلمات شخص عمر فى خلقه وخلفه كما كان .

ومحصل هذه الأخبار جميعاً أن عمر كان من نخبة المثقفين فى العربية ، وكان وفر السهم فى ثقافة قومه وعصره . وكان الجانب العملى من ثقافته أغلب وأظهر من جوانبها النظرية كما هو المعهود فى سياسة الأمم وعواهل الدول . وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتاق إلى نفس الشعر وأطايب الأدب لما يجده فيها من راحة النفس ومتعة الخاطر .

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية إلى الكلام على موقفه من

(١) العسطة: الكلام بلا نظام ، وكلام معسلط أى مخلط . والتعمل: التكلف .

الثقافات الأخرى فى زمانه، وعلى حقيقة الرواية التى شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبه الإسكندرية التى قيل أنه أمر بإحراقها. فهل هو الأمر بإحراقها كما جاء فى تلك الرواية؟ وإذا كان هو الأمر بذلك فما دلالة على تفكيره؟ وما وجه التبعة فيه؟ فحوى تلك الرواية أن عمرو بن العاص رفع إليه خبر المكتبة الكبرى فى الإسكندرية فجاءه الجواب منه بما نصه: "أما الكاتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله فى كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه. فتقدم بإعدامها". قال مفصل هذه الرواية: فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفذ لكثرتها!

وأحرى شىء أن يلاحظ فى مسألة المكتبة هذه أن الذين أدرجوها وأبرأوا عمر من تبعها كان معظمهم من مؤرخى الأوروبين الذين لا يهتمون بالتشيع للمسلمين وكانوا جميعاً من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم فى هذا الموضوع.

فالمؤرخ الإنجليزى الكبير إدوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب الدولة الرومانية فى إنحدارها وسقوطها يسرد ويعقب عليها قائلاً: "أما أنا من جانبى فإنى شديد الميل إلى إنكار الحادثة وتوابعها على السواء، لأن الحادثة لعجبية فى الحق كما يقول مؤرخها هو أن نسمع ما جرى ونعجب!.. وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميديا بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحي وكلاهما مصرى، وأقدمهما البطريق يوتيوخوس Eurghius الذى توسع فى الكتابة عن فتح الإسكندرية. وأن القضاء الصارم الذى نسب إلى عمر لبغض إلى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم إحراق الكتب الدينية التى تغنم من اليهود والمسيحيين فى الحرب، وما كان من الكتب دنيوياً ظنياً سواء ألفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة

فحكّمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين . وقد تعزى إلى متقدمى الخلفاء بعد محمد غيرة أضرى من ذلك بالهدم والإبادة . ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفذ الأوراق سريعاً لقلّة المادة المحترقة! فلا ترجع إلى نكبة المكتب فى الحريق الذى أصابها على غير قصد يبدى قيصر وهو يدافع عن نفسه، ولا إلى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدييراً لتعفية الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام، ولكننا ننحدر شيئاً فشيئاً من عصر أنتونين إلى عصر ثيوديسيوس فعلم من سلسلة الأبناء المعاصرة أن القصر الملكى وهىكل سرايس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى إحدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأصابير، فإن كانت هذه هى الوقود الذى أفتته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت فى الحمامات أنفع لبنى الإنسان! .

والدكتور الفرد بتلو Butler المؤرخ الذى أسهب فى تاريخ فتح العرب لمصر والإسكندرية يلخص الحكاية وينقصها ابتداءً لأن حنا فلبوتوس الذى قيل أنه خاطب عمرو بن العاص فى أمر المكتبة لم يكن حيّاً فى أيام فتح العرب لمصر . . ثم ينقصها لأسباب شتى منها أن كثيراً من كتب القرآن السابع كانت من الرق^(١) وهولا يصلح للوقود، وأنها لو قبضى الخليفة بإحراقها لأحرقت فى مكانها ولم يتجشموا نقلها إلى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان، وأنا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقى من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوماً، وهذا عدا الشك الذى يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية، ثم كتابتها

(١) الرق: بفتح الراء وكسرها، جلد رقيق يكتب فيه .

بعد ذلك خلوا من المصادر والأسناد، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة في السنة الثامنة والأربعين للميلاد، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين.

والمستشرق كازانوفاً يسمي الحكاية أسطورة ويقول أنها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون، وينتقضاها لمثل الأسباب التي لخصناها من كتاب بتلر، ثم يقول: ". . . وهناك اعتراض أخطر مم تقدم وهو أن ما ذكر عن يحيى النحوى منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم في أواخر القرن العاشر، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقرباً من عمرو ولم يذكر شيئاً عن مكتبة الإسكندرية، فحادثة المكتبة إذن من أوهام ابن القفطى أخذها عن خرافة كانت شائعة في عصره".

ثم يمضى في تفنيده فيقول: وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التي حرقها عمر عند فتح العرب. وقال ابن خلدون في كلام آخر: أن العرب لما فتحوا بلاد الفرس سأل بن أبي وقاص عمر عما يأمر به في شأن الكتب التي بها فأمره بإلقائها في اليم فانتقلت القصة من فارس إلى الإسكندرية مع الزمن، وفعل الخيال فعله في تحريفها.

"وقد وقع تحريف في هذه الخرافة في بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل أن مكتبة الإسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد، وأن الترك فتحوا الإسكندرية سنة ٨٦٨ وأضرموا فيها النار على عهد أحمد بن طولون. . . ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر وإنما أقامه خليفة بغداد حاكماً عليها، فلا علاقة للترك إذن بهذا الحادث المزعوم".

قال: "وفي سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دي لندبرج أن أحد الضباط الإنجليز أنهم نابليون الأول بإحراق مكتبة الإسكندرية.

قال: "وسنلم هنا بالسبب الذى من أجله ظهرت هذه الخرافة فى القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك".

"فى أواخر القرن الثانى عشر رجعت مصر إلى حكم خلفاء بغداد، وأبلى صلاح الدين بلاءه فى الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفتح مصر، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب. وكان لابن القفطى أب يعجب بصلاح الدين ولاء صلاح الدين قضاء القدس، وعاصر عبد اللطيف البغدادي وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين، فتلاقيا فى القدس منه هذه الأسطورة التى توسع ابن القفطى فى نقلها. فكان أول من ألف هذه الأسطورة من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. فكان أول من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. وما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية إلى القرن الثامن عشر يوشىها ما ينسجه الخيال حول الخرافة العمرية. ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد وتعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله ألا كتاب إلا كتاب الله. . .".

ومن المشاركة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان فى الجزء الثالث من كتابه "تاريخ التمدن الإسلامى" حيث قال أنه كان يميل إلى نفي الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلك "أن حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يختلفها أبو الفرج لتعصب دينى، ولا دسها أحد بعده، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجبر والتعديل، وكان صدراً محتشماً جمع من الكتب مالا يوصف، وكانوا يحملونها إليه من الآفاق، وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار، ولم يكن يحب من الدنيا سواها، وله حكاية غريبة من غرامة بالكتب، ولم يخلف ولدًا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب،

وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة، وفى جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين فى ستة مجلدات، وكتاب تراجم الحكام الذى نحن فى صده، وان ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذوا عن مصدر ضائع. وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب، والغالب منهم ذكروها ثم حذفوا بعد نضج التمدن الإسلامى واشتغال المسلمين بالعلم وعرفتهم قدر الكتب، فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه، أو لعل لذلك سبباً آخر، وفى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج . . .".

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكنوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتم على سمعة الخلفاء الراشدين، فإن القفطى لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالاة بنفاسة المكتبات. فلا بد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية إلى أن نجمت بعد بضعة قرون.

فمن جملة هذا العرض لأراء نخبة من الثقات فى هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنها موضوعة فى القرن الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأرمنة السابقة له.

بسند صحيح، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذمى عليه وعلى الإسلام.

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا نوضع قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيه إلى الكتب المدونة، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها.

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها فى وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة.

فهو يستلزم أن يكون الملقق عليهما بالأقوال والأحوال التي أثرت عن عمر ابن الخطاب. وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريية التصديق مشابهة لما يتوخاه الخليفة في أوامره ونواهيهِ. . ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الإسكندرية فضلا عن المسيحيين أو الإسرائيليين، وإنما علمت واستفاضت بعد ما دوت السير وجمعت المتفرقات.

ويستلزم تلفيق الحكاية، للتشهير بالخليفة المسلم، أن يكون الملقق عازفاً بما في هذه التهمة من المعابة، شاعراً بما فيها من الاعتساف والغرابة. ولم يكن هذا أيضاً مفهوماً في أيام الإسكندرية بين خصوم الإسلام، لأنهم كانوا قد تعودوا إحراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجساً من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم، وما من عارف بالكتب بينهم إلا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين في تدمير التحف الإغريقية ولاسيما "ثاوديسيس" الذي أحرق هياكل شتى، فيها ولا شك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف.

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قبل وقال، ولم تكن مصر قط قبله أنظار العالم كما كانت في أوقات الحروب الصليبية، يوم كانت هي ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبواها.

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر حزارة بين الإسلام وخصومه كما كان عصر الحزوب الصليبية وما قبله بقليل.

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك في القيل والقال حافظوا الكتب الإغريقية في بيزنطية وشواطئ آسيا الغربية، وهي البلاد التي كانت مواطئ أقدام الجيوش في الكر والفر والقدوم والإياب، ومنها تدفق حافظوا الكتب إلى أوروبا عندما أغار الترك على بيزنطية من تلك الأرجاء.

فتلفيق الحكاية إذن كان عجيبيًا في أيام فتح الإسكندرية وما تلاها من الأزمنة إلى زمان القفطى والبغدادى وأبى الفرج الملطى، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة فى تلك الأيام.

وتلفيقها فى عصر الحروب الصليبية غير معجب لاجتماع الأسباب التى يستلزمها ذلك التلفيق، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذى يبطل العجب ويفسر الغوامض التى لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل.

إلا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، فما هى الوصمة التى تلحقه من هذا الأمر؟ ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ويحب عليه أن يستبقها ويفتح أبوابها؟ ولماذا كان ينبغى أن يكون على يقين أنها شئ مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها؟

أمن النقص فى التفكير الإنسانى أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها، إن صح أنهم خطفوها.

إن أحوال الروم والقبط فى ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفسية، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التى لا يجوز التفريط فيها.

فقد كانوا على شر حال من العف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفاف الأمور. فإذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الإطلاع عليها، وإذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة، فأين هو العيب فى تفكيره إن صح أنه فكر على ذلك المنوال؟

إنما يعيب الإنسان أن يكون عدوًا للمعرفة على إطلائها ولم يكن عمر عدوًا للمعرفة ولا معرضًا عنها، بل كان مشغوفًا به حيث رآها دينية كانت أو أدبية، ومن قومه أتت أو من غير قومه.

فكان يستشير الغرباء في تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهى عن علم شيء إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال.

وكانت ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يقبلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهمه على فهم كل كتاب، وهذا واجبه الأول الذي لا مرأى فيه، وما من أحد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص، لأنه الخليفة الذي في عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل العقد الذي جمعهم وبث فيهم الهمة والبأس وسودهم على العالمين.

. وفي الأخبار التي نقلت بهذا الصدد أن رجلاً أنبأه لما فتحوا المدائن أصاب كتابًا فيه كلام معجب، فسأله: أمن كتاب الله؟ قال لا. فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ: "الر. تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون..؟ ثم قال: "إنما أهلك قبلكم أنهم قبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم".

رويت هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه، وليس فيها ما ياباه العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والإيمان إلى حين.

فبالتجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابتهم خرجوا من الظلمات إلى النور وانصروا على ما حاربوه وعندهم كل كتاب.

وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات. فكيف يرضى الخليفة الذي يهمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه إل كتب

لا يؤمن ما فيها؟ وكيف يكون الحال إذا تفرقوا شر مذر^(١) ولهم فى كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه؟ أمن عداوة المعرفة هذا أو من إيثار المعرفة التى تتقدم على غيرها؟ وإذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها فى السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدم؟ ومتى يعطل القرآن حقه من السفة والوعى والإقبال؟ وأين هى الغنمة التى تعدل فى كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الإسلام؟

فعلى أى فرض من الفروض لم يكن فى تصرف عمر ما يأباه العقل الذى ينظر إلى الحقائق المشهودة والآثار الواقعة، ويجوز أنه أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية على أبعد احتمال، ولكن الذى لا يجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع ومعرفة مجهولة وظواهرها تغرى باتهامها. ولا لوم عليه أن يولد حيث يجهلها، ولا لوم عليه أن يتهما وهى لم تنفع أهلها يوم رأهم يخبطون فى الضلالة والهزيمة، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير إنه لم يفكر على هدى مستقيم.

(١) شذر مذر: أى متفرقين.